

الحلقة الثالثة  
قصص الخلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدِّينِيُّ

# فَتْحُ أَفْرِقِيَّةَ

عبد الحميد جودة السحار

١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا »

(قرآن کریم)

كَانَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ وَالْيَا عَلَى مِصْرَ ، فَلَمَّا  
 أَصْبَحَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ، عَزَلَ عُمَرَا  
 عَنْ وَلَايَةِ مِصْرَ ، وَاسْتَعْمَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَرْحَ ،  
 فَغَضِبَ عُمَرُو غَضَبًا شَدِيدًا ، وَحَقَّدَ عَلَى عَثْمَانَ ،  
 حَتَّى إِنَّهُ طَلَّقَ أُخْتَهُ الَّتِي كَانَ مَتْرُوجًا مِنْهَا .

وَذَهَبَ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَابَلَ عَلَى  
 ابْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ وَطَلْحَةَ ، وَأَخَذَ  
 يُخْبِرُهُمْ أَنَّ النَّاسَ فِي مِصْرَ قَدْ اسْتَاءَوْا مِنْ عَثْمَانَ ،  
 لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي سَرْحَ ، ذَلِكَ  
 الرَّجُلُ الَّذِي مَاتَ النَّبِيُّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ . وَرَاحَ  
 يَذْكُرُهُمْ عِيُوبَ عَثْمَانَ .

وجاء مؤمبم الحج ، فاندس عمرو بين الناس ، واستمر يحدّثهم عن عثمان ، فيقول لهم إنه يؤلى أقاربه على الناس ، وإنه يحبُّ بنى أمية ، لأنه منهم ، وإنه يعطيهم من بيت مال المسلمين .  
وكان عمرو يحقد على عثمان حقدا شديدا ، حتى إنه كان يحرض عليه الراعى فى غنمه فى رأس الجبل .

## ٢

وكان محمد بن أبى بكر يحبُّ على بن أبى طالب ، فقد تربى محمد فى بيت على بعد أن تزوج من أمه ، فشبا وهو لا يعرف له أبا غيره . ولمس عظمة على وعلمه وعدله فكان يعتقد أن عليا أحق بالخلافة من عثمان ، لذلك ساءه أن تخرج الخلافة

من يدِ عليّ ، واعتقد أنّ عثمان أخذها بغير حقّ .  
 فأحسَّ عدم ميل إلى عثمان ، وأراد أن يُناوئ  
 عثمان ، فخرج من المدينة وذهب إلى مصر .  
 وأسلم عبدُ الله بن سبأ ، وكان يهوديًا من أهل  
 صنعاء ، وكانت أمّه سوداء ، فكان يُطلقُ عليه ابن  
 السوداء ، ولم يكن إسلامه صادقاً ، بل كان يُريد أن  
 يذرَ بذورَ الشقاق بين المسلمين ، ويحاولَ ضلالتهم ،  
 فبدأ بالحجاز ، يُغيِّرُ الناسَ على أميرهم عثمان ،  
 ولكنه لم يجدَ من يسمعُ له ، فذهب إلى البصرة ، ثم  
 ذهب إلى الكوفة ، وهبط إلى الشام ، وهيجَ الناسَ  
 على معاوية ، فأخرجه معاويةُ من الشام ، فذهب إلى  
 مصر ، وتقابل مع محمد بن أبي بكر في مصر ،  
 فاشترك معه في الدعوة لعليّ ، لا لأنه كان يحب  
 عليّاً كما يحبّه محمد بن أبي بكر ، ولكن لأنه أرادَ  
 أن يفرِّقَ كلمةَ المسلمين .

وكان محمد بن أبي حذيفة يتيما في حجر عثمان ،  
فلما أصبح عثمان أميراً للمؤمنين ، طمع محمد في  
أن يوليّه عثمان عملا ، ولكن عثمان لم يستعمله ،  
لأنه كان صغير السن ، فدخل محمد بن أبي حذيفة  
على عثمان ، وطلب منه أن يوليّه عملا ، فقال له  
عثمان إنه لا يصلح أن يوليّه على المسلمين ، فحزن  
محمد وقال لعثمان :

- فأذن لي فلا أخرج ، فلا طلب ما يقوتني .  
فقال له عثمان :

- اذهب حيث شئت .

وجّهزه عثمان ، وأعطاه جملا ، وأعطاه ما يكفيه ،  
فذهب محمد بن أبي حذيفة إلى مصر ، فاجتمع هناك  
محمد بن أبي بكر وعبد الله بن سبأ ومحمد بن أبي  
حذيفة ، فراحوا يتحدثون في خلع عثمان .

أمر عثمانُ عبدَ الله بنَ أبي سرح أن يخرجَ من  
مِصرَ لفتح إفريقية ، وقال له :  
- إن فتح الله عليك ، فلك خمسُ الخمس من  
الغنائم .

فجهَّز ابنُ أبي سرح جيشاً ، وخرج من مصرَ في  
عشرةِ آلاف مقاتل ، لفتح شمال إفريقية . وكان  
الرُّومُ يحكمون شمالَ إفريقية ، فتقابلت جيوشُ  
المسلمينَ وجيوشُ الرُّومِ ، ودارت معاركُ رهيبة ،  
فأيقن ابنُ أبي سرح أنه لن يستطيع أن ينتصرَ على  
الرُّومِ في إفريقية ، فأرسلَ إلى أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ  
عفانَ يطلبُ منه مدداً ، فقام عثمانُ وطلبَ من  
النَّاس أن يخرجوا ، لشدِّ أزرِ جيشِ المسلمين ، فتقدَّم  
عشرةُ آلاف ، فيهم جماعةٌ من الصحابة ، منهم ابنُ

عبّاس وابنُ عُمَرَ وابنُ عَمْرٍو وابنُ جَعْفَرٍ ، والحسنُ  
والْحُسَيْنِ ، وعبدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ ، وخرج الجميعُ من  
مدينة الرسول ، وساروا حتى انضمُّوا لجيوشِ  
المسلمينَ في إفريقية .

والتقى الجيشان . فأمر جرجيرُ ملكُ الرُّوم جيشَه  
أن يلتصُّوا بالمسلمين ، فأحاطوا بهم كالحالة ، ودار  
القتال ، فأحسَّ المسلمون أنَّ أعداءهم أقوىاء ،  
وأخذ أبطالُ المسلمين يُدافعون عن أنفسهم ،  
ويهمُّون على الأعداء ، ليكسروا حلقةَ الأعداءِ  
التي تريدُ أن تطبقَ عليهم ، لتقضىَ عليهم .

كان الموقفُ رهيباً لم يُرَ أشنعُ منه ، فالموتُ يُحيطُ  
بالمسلمينَ من كلِّ جانب ، وارتفعتِ الشمسُ حتى  
توسَّطتْ كبدَ السماء ، وصناديدُ المسلمين ثابتون ،  
واشتدَّت حرارةُ الشمس ، فراح الجيشانِ ينصرفان ،  
ليستعدَّا لاستئنافِ القتالِ في اليومِ التَّالِي .

لاحظ ابنُ الزُّبَيْرِ غِيَابَ ابْنِ أَبِي سَرْحٍ عَنِ الْقِتَالِ ،  
فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَخْلَاقِ قُرَوَادِهِمْ أَنْ  
يَتَخَلَّفُوا عَنِ الْقِتَالِ ، بَلْ كَانُوا دَائِمًا فِي الصُّفُوفِ  
الْأُولَى ، فَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَغِيُّهِ ، فَقِيلَ لَهُ :

- إِنَّهُ سَمِعَ مَنَادِيَّ جَرَجِيرٍ يَقُولُ : مَنْ قَتَلَ ابْنَ أَبِي  
سَرْحٍ فَلَهُ مِائَةُ أَلْفٍ دِينَارٍ ، وَأَزْوَاجُهُ ابْنَتِي ، فَخَافَ  
وَتَأَخَّرَ عَنِ شُهُودِ الْقِتَالِ .

ذَهَبَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ ،  
وَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ :

- لِمَ تَتَخَلَّفُ عَنِ الْقِتَالِ ، أَمِنْ أَجْلِ مَا نَادَى بِهِ  
جَرَجِيرٌ ؟ فَلْتَنَادِ أَنْتَ بَأَنَّ مَنْ قَتَلَ جَرَجِيرًا أُعْطِيَتْهُ مِائَةُ  
أَلْفٍ ، وَزَوْجَتُهُ ابْنَتُهُ .

#### ٤

اجْتَمَعَ جَيْشُ الرُّومِ وَجَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَرَزَ  
مُنَادِي الْمُسْلِمِينَ وَنَادَى :

- من قتل جرجير أعطاه الأمير مائة ألف وروحه  
ابنة جرجير .

خاف جرجير ، وأحس أن جميع المسلمين  
سيطلبونه ويحاولون قتله ، ليحصلوا على ما وعدهم  
به أميرهم ، فتأخر ، وقد شعر بدُغْر وقلق ،  
واستمرت المعركة ، حتى إذا ما ارتفعت الشمس إلى  
كبد السماء ، وارتفع صوت المؤذن بالظهر ،  
انصرف الجيشان ليستعدوا لاستئناف القتال في  
اليوم التالي .

دخل ابن الزبير خيمته ، وراح يفكر فيما شهد  
في القتال ، فرأى بفكره أن الجيشين يُحاربان حتى  
الظهر ، ثم ينصرفان ، وخطر له خاطر اطمأن إليه ،  
فذهب إلى عبد الله بن أبي سرح يقصُّ عليه ما فُكِّر  
فيه .

خلا ابن الزبير بعبد الله بن أبي سرح ، وقال له :

— إِنَّ الْحَرْبَ تَدُورُ حَتَّى الظُّهْرِ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ

الْجَيْشَانِ .

— نَعَمْ .

— أَرَى أَنْ يُتْرَكَ أَبْطَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي خِيَامِهِمْ

مَتَأَهِّبِينَ لِلْحَرْبِ ، حَتَّى إِذَا مَا انْصَرَفَ الرُّومُ ، هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْمُنْتَظَرُونَ فِي الْخِيَامِ .

— نَعَمْ الرَّأْيُ .

أَعْجَبَ ابْنُ أَبِي سَرْحٍ بِهَذِهِ الْخِطَّةِ ، فَأَمَرَ أَبْطَالَ

جَيْشِهِ بِالْإِنْتِظَارِ فِي خِيَامِهِمْ ، وَعَدِمَ الْإِسْتِرَاكِ فِي

الْحَرْبِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى

الظُّهْرِ ، وَالْخُرُوجِ عِنْدَ سَمَاعِ أَذَانِ الظُّهْرِ ، لِيَحْمُوا

ظَهْرَ ابْنِ الزُّبَيْرِ الَّذِي سَيَتَقَدَّمُ لِقَتْلِ جَرَجِيرٍ .

وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ ، وَخَرَجَ الْجَيْشَانِ لِلْقِتَالِ ،

وَتَبَدَّلَتِ الضَّرَبَاتُ وَالطَّعْنَاتُ ، وَتَلَاقَتِ السُّيُوفُ

وَتَصَافَحَتِ الْأَجْسَامُ ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ ، وَغَطَّتِ

الْجَثَثُ الْمَكَانَ ، وَاقْتَرَبَتِ الشَّمْسُ مِنْ كِبَاءِ السَّمَاءِ ،

فمشی التعبُ في الأجسام ، وانتظرُ الناسُ سماعَ  
الأذان ، فقد حنَّت أجسامُهم للراحة ، وأذن المؤذنُ  
بالظُّهر ، فافترقَ المتحاربون ، وانصرف كلُّ إلى  
عسكره ، وهم الرُّومُ بالانصراف ، وعينُ ابنِ الزُّبيرِ  
على ملكهم جرجير ، فرآه من وراء الصفوفِ وهو  
راكبٌ على بغلته ، وجاريتانِ تظللانه بريشِ  
الطاوويس ، فالتفتَ ابنُ الزُّبيرِ إلى أبطالِ المسلمين  
الذين كانوا مُستعدينَ للقتال ، والذين لم يشترِكوا  
في القتال الذي كان دائراً من الصُّبحِ حتى الظُّهر ،  
وقال لهم :

— احموا لي ظهري .

ثم سار بفرسه إلى ملكِ الرُّوم ، وراح يخترقُ  
الصفوف ، والناس يتركونه ، فقد حسبوا أنه ذاهبٌ  
في رسالةٍ إلى ملكهم ، ولما اقترب منه بان الشرُّ في  
وجهه ، فخاف الملكُ وهربَ على بغلته ، فأسرع

ابن الزُبَيْر خلفه ، وهجم فُرسَانُ الْمُسْلِمِينَ لِيَحْمُوا  
ظَهَرَ ابْنُ الزُّبَيْرِ .

وَلَحِقَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْمَلِكَ ، فَهَجَمَ عَلَيْهِ وَطَعَنَهُ بِرُمَحِهِ ،  
ثُمَّ ضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ ، وَأَخَذَ رَأْسَهُ ، وَنَصَبَهُ عَلَى الرُّمَحِ ،  
وَصَاحَ :

— اللَّهُ أَكْبَرُ ... اللَّهُ أَكْبَرُ .

فَهَجَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، فَلَمَّا رَأَى الْبُرْبُرُ  
الَّذِينَ فِي جَيْشِ الرُّومِ ذَلِكَ ، خَافُوا وَفَرَّوْا ،  
وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ ، وَانْتَهَتْ  
الْمَعْرَكَةُ ، وَقَدْ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ نَصْرًا  
مُبِينًا .

## ٥

أَخَذَتِ ابْنَةُ الْمَلِكِ سَبِيَّةً ، فَقَدَّمَهَا ابْنُ أَبِي سَرْحٍ إِلَى  
ابْنِ الزُّبَيْرِ هَدِيَّةً ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَ كَثِيرَةً

وأموالا ، وقسم عبدُ الله بنُ أبي سرح الغنائم ،  
 فاحتجزَ الخمسَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ،  
 وقسمَ الباقيَ على المقاتلين بعد أن احتجزَ لنفسِهِ  
 خُمُسَ الْخُمُسِ ، كما وعده أميرُ المؤمنين .

كان ما أخذه ابنُ أبي سرحَ سلاحًا جديدًا في  
 أيدي أعداءِ عِثْمَانَ ، فراحوا يقولون إنَّ عِثْمَانَ  
 يُحايي أهله ، ويميلُ إليهم ، ويُعطِيهم فوقَ ما يُعطى  
 المسلمين .

وشاءَ ابنُ أبي سرحَ أن يُرسلَ إلى أميرِ المؤمنين  
 عِثْمَانَ ، يُخبرُهُ أَنَّ المسلمينَ قد فتحوا إفريقيَّةَ ،  
 وأنهم انتصروا على جيشِ الرُّومِ ، فاخترَ ابنُ  
 الزُّبَيْرِ ، بطلَ المعركة ، ليذهبَ إلى عِثْمَانَ بالفتحِ  
 العظيمِ .

خرجَ ابنُ الزُّبَيْرِ قاصدا المدينةَ ، وجعلَ يطوى  
 الصَّحاري والوديانَ ، ويتمنى أن يكونَ له جناحان  
 ليطيَرَ إلى أميرِ المؤمنين ، لئيبته بالخبرِ العظيمِ ، ووصلَ

أخيراً إلى المدينة فدخل على عثمان ، وقد بان الفرحُ  
 في عينيه ، وأخذ يقصُّ على عثمان ما فعله  
 المسلمون ، حتى جاءهم النصر المبين ، فالتفت  
 عثمان إليه وقال :

— إن استطعتَ أن تُؤدِّيَ هذا للناسِ فوق المنبر .

أحب عثمان أن يسمعَ الناسُ من ابن الزبير ما  
 فعله المسلمون في إفريقية ، فطلب من ابن الزبير أن  
 يحدثهم بما شهد ، فخرج ابن الزبير ، وكان شاباً ،  
 وصعد المنبر ، واجتمع الناسُ لسمْعوا ما يقولُ هذا  
 الشابُ الذي جاء بالبشارة . وراح عبدُ الله بنُ  
 الزبير يقصُّ عليهم ما رأى ، فاستولى على الناس ،  
 واستمرَّ في إلقاءه الهدى ، والتفت فإذا به يرى أباه  
 الزبير في جملة من حضر ، فلما تبين وجهه كاد أن  
 يتلعثم ، فقد كان يهابه ويخشاه ، ولكنَّ الزبير ابتسم  
 له ، وأشار إليه بحضه على استئناف ما كان فيه ،

فعاد إلى ابن الزبير هُدوءه ، وقال وتدفق ، فأحس  
 الزبير رضا ، وأخذ يستمع إلى ابنه وقد تفتحت  
 نفسه ، وانشرح صدره ، وأحس دَمعة فرح تكاد  
 تفر من عينيه ، فمسحها بظهر يده ، وأخذته  
 النشوة ، وهزه الطرب ، فأحس رغبة في ضم ابنه  
 إلى صدره . وانتهى ابن الزبير من قوله ، فنزل ،  
 فاسرع إليه الزبير ، والتفت إليه في حنان ، وقال له  
 في إعجاب :

- واللّه لكانى أسمع خطبة أبى بكر الصديق حين  
 سمعت خطبتك يا بنى .

وانصرف الناس ، وهم مسرورون ، فقد فتح  
 المسلمون إفريقيّة ، وانتشر فيها الدين الإسلامى  
 الخفيف .